الأستاذ رشيد بن مالك

المحاضرة العاشرة في مادة السيميولوجيا

طلبة السنة الثالثة ليسانس

شعبة الاتصال

تحليل خطاطة النصيحة وأبعادها الدلالية

في

كليلة و دمنة لعبد الله بن المقفع

قراءة سيميائية

يحدث المتلفظ، في هذه الخطاطة، خرقا زمنيا في اللحظة الحاضرة، يعلق الخطاب ليروي وقائع آباء وأجداد دبشليم. من خلال هذه الإضاءات ، تتحدد أدوارهم العاملية في تشييد الملك وبناء القلاع، والحصون، و قيادة الجيوش. ويستند تحقيق هذه الإنجازات إلى كفاءة سردية مفترضة. لم يقدم الراوي التفاصيل بخصوص الكيفية التي تم بها تحقيق الإنجازات المتنوعة. فحديثه الموجز عنها هو بمثابة رسائل مشفرة يفترض فكها أو استشفارها معرفةَ التفاصيل الدقيقة حول هذه الوقائع التاريخية. مما يعني أنه يدرك بأن دبشليم له من المعرفة التي تؤهله لاشتشفار مضمون رسائل الخطاب. إنه من خلال هذا السرد الموجز يقدم للملك النقاط المعلمية الكبرى الخاصة بالممارسات السياسية للملوك السابقين. ولكن الراوي لم يسم هؤلاء. يقودنا بناء العامل الجماعي(الملوك) على هذا النحو إلى فهم طبيعة ممارسته السياسية المتسمة بالتسيير الحسن لشؤون الرعية. تمثل هذه الممارسة على الصعيد الخطابي تشكلا يضم مجموعة من المسارات الصورية يمكن أن نقدمها على النحو الآتي:

الممارسة السياسية للملوك السابقين

↓

التسيير الحسن لشؤون الرعية

↙ ↓ ↘

الاستعمال الحسن إلى من خولوه الإرفاق بمن ولوه سن السيرة فيما تقلدوه[49].

إن هذه المسارات التي تحيل وحدات صورها المضمونية على **التدبير الحسن، والمرونة في تقليد المهام وتكليفها بمن حسنت سيرتهم**، تعمل على تحديد الشخصيات التي اضطلعت في برنامجها بمهمة إرساء قنوات الاتصال بالرعية و تشييد عالم يبعث على الانشراح :

"وعاشوا الدهور في الغبطة والسرور"[50].

وقد عرض بيدبا بعض معالم هذا العالم المحقق في الماضي والمتسم بالحياة على الملك ليتخذه نموذجا بديلا للنظام الذي أقامه على أنقاض نظام سابق لا يعترف بالحقوق المشروعة للرعية. إن عالم دبشليم على النحو الذي يعرضه بيدبا عالم مضطرب، ومنهار بفعل تمزق الوشائج التي تحكم الراعي بالرعية. فالانتقادات والبدائل التي يعرضها بيدبا محملة برسائل مسخرة لخلق **التناقض** بين عالمين :عالم يبعث على الحياة والانشراح وعالم يبعث على الموت والانقباض.

تقدم مسارات التشكل الذي يعمل على تجلية المستوى السردي صورا ليست منغلقة على نفسها، بل إنها متفتحة و تتوسع لتحدث وحداتها تماسكا دلاليا يعمل على توصيف الطابع الوحشي للممارسة السياسية:

الممارسة السياسية للملك دبشليم

↓

سوء التدبير في شؤون الرعية

↙ ↓ ↘

طغى،بغى،عتا و علا على الرعية أساء السيرة عظمت منه البلية

و يمكن أن نفهم هذه الصور في علاقتها بالصور السابقة المؤطرة للملوك السابقين بالنظر إلى العلاقة التي تربط الصعيد السردي بالصعيد الخطابي. وتتصل عملية الربط هذه أشد الاتصال بالمسارات الصورية التي تحيل على وضعيتين سرديتين متمايزتين ومتلاحمتين في الوقت نفسه.

❶ تتحدد الوضعية السردية الأولى بعامل جماعي(الملوك) تعددت برامجه، وتنوعت بتنوع معارفه في التسيير. وقد جاءت هذه المعارف نتيجة لاحتكاك الملوك السابقين بالعلماء الذين يحتلون في هذه البرامج موقع المرسل المحرك **الذي يخطط و يقرر** كلما لاحظ اعوجاجا، أو خروجا عن العدل، أو سوء في التسيير. و إذا دققنا النظر في هذه المسألة، فإن دور العلماء يتحدد بتحريك وتفعيل كفاءة الملوك بتحقيق الإنجاز السياسي المنشود. ويتجلى ذلك على المستوى الخطابي من خلال:

①الاستعمال الحسن إلى من خولوه

②الإرفاق بمن ولوه

③حسن السيرة فيما تقلدوه

و يقودنا ضبط هذه المسارات إلى افتراض أربع مراحل غطاها الفاعل الجماعي (الملوك السابقون) في أثناء اضطلاعه بمهمة تنفيذه البرنامج السياسي. و يمكن أن تأخذ موقعها في المربع السيميائي على النحو الآتي:

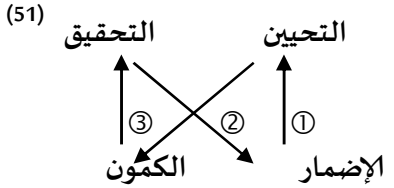

(51)

يتحدد الإضمار على مستوى الكفاءة الجهية بـ **الرغبة** في تسيير شؤون الرعية، و**وجوب** رعايتها بالتدبير الحسن.أما التحيين، فإنه يتمظهر من خلال الجهات المؤهلة(**معرفة الفعل،القدرة على الفعل**) للفاعل في ممارسة فعله السياسي.

و يجسد **الكمون** potentialisation الحالة الشعورية للفاعل، واستعداده النفسي الذي يمكنه من تحقيق القيم وإرساء قنوات التواصل بالرعية. و لئن كانت هذه المراحل الأساسية الضامنة لصيغ وجود الفاعل السيميائي، متخفية في النص ولا تأبى الظهور بشكل صريح على المستوى السردي، فإن القارئ، بالاعتماد على بعض المعطيات النصية المقيدة سلفا، يستطيع أن يسلم بوجودها. وتتأكد هذه الفرضية بفعل الإنجازات التي حققها الملوك السابقون. وما كان لهذه الإنجازات أن تتحقق في غياب كفاءة مفترضة .

❷ أما الوضعية السردية الثانية المتوجة للخطاطة السردية، فإنها تأتي امتدادا طبيعيا لأداء الملوك، و تنتصب في النص لتحرك فعلا تقويميا يشمل البرنامج السياسي. ويمكن أن نلمس ذلك من خلال ثلاثة مستويات :

أ/ في المستوى الثيمي يعبر الملوك عن رضاهم، وانشراحهم بإنجازاتهم السياسية:

"**و عاشوا الدهور في الغبطة و السرور** "[52].

ب/ في المستوى الثاني، تضطلع الرعية بدورين عامليين. يتحدد الدور الأول من موقعها كمرسل إليه/ مستفيد من الإنجازات السياسية المحققة. ويتحدد الدور الثاني بالفعل التقويمي الذي تقوم به الرعية من موقع المرسل/المقوم لإنجازات الملوك :

"**فلم يمنعهم ذلك من اكتساب** جميل

الذكر ، **و لا قطعهم** عن اغتنام الشكر"[53] .

ج/ يعد المستوى الثالث محصلة للمستويين السابقين. إن التقويم الإيجابي المحدد للمسار السياسي للملوك [سواء كان هذا التقويم انعكاسيا أو متعديا] هو بمثابة الحجة القاطعة التي يقدمها بيدبا لدبشليم لحمله على رأب الصدع الذي أفضى إلى إحداث شرخ في المتصل السياسي الضامن لعملية التواصل بين الحاكم والمحكوم .

من هذه المنطلقات، نزع بيدبا في خطابه الحجاجي إلى مواجهة الملك بالارتكاز على وضعيتين متمايزتين . يمتد الزمن ،في الوضعية الأولى، على مدى دهور بأكملها تعاقب عليها ملوك استطاعوا أن يشيدوا عالما متوازنا ومتوافقا مع طموحات الرعية .أما الوضع الثاني الذي تتضاءل مدته الزمنية لتغطي برهة من الدهر متسمة بالاضطراب وتمزق النسيج السياسي فإنه ينتصب ليحدث التناقض بين مرحلتين منفصمتين. في هذه اللحظة من السرد، يحدث بيدبا خرقا زمنيا في المتصل السردي لينقل دبشليم من عهد مضى بكل إيجابياته؛ وهو عهد الملوك السابقين ، إلى عهد راهن ينبري فيه ليوجه خطابه في اللحظة الحاضرة (الآن ،الهنا) وفي صيغة ضمير المتكلم إلى الأنت. إنها معارضة سياسية متضمنة إدانة مباشرة لسوء تسيير دبشليم:

ب **"إنك أيها الملك (...) قد ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم ومنازلهم التي كانت عدتهم ، فأقمت فيما خولت من الملك وورثت من الأموال والجنود فلم تقم في ذلك بحق ما يجب عليك، بل طغيت و بغيت وعتوت وعلوت على الرعية، وأسأت السيرة و عظمت منك البلية"**[54].

يُقِوم بيدبا في هذا الملفوظ البرنامج السياسي للملك تقويما وإن كان ينهض على القيم السلبية التي أفرزتها ممارسته السياسية، فإنه لا ينفصل على الإطلاق عن تقويمه الإيجابي للمسار السياسي للملوك السابقين. إن لخطاب بيدبا عينا على الماضي الحافل بالإنجازات ، وعينا على الحاضر أيضا، ولكنه حاضر تتسرب عبره صور الطغيان، والعتو، والعلو، والبلايا. ويقودنا هذا المسار الصوري الخاص بالملك إلى افتراض مجموعة من البرامج السردية حركها دبشليم في الاتجاه المضاد لرغبات الرعية وطموحاتها المشروعة. إن استراتيجية بيدبا في صناعة خطابه الحجاجي تتفادى الدخول في التفاصيل الدقيقة لممارسة دبشليم السياسية التي أدت إلى حدوث أضرار لحقت بالرعية، ولكنه اكتفى فقط بذكر نتيجة الفعل السياسي الذي مارسه الملك على الرعية فخلق بذلك وضعا يتسم عبر المسار الصوري المنطوي على **الاضطراب والموت** . وهو وضع يدخل في علاقة تضاد بالوضع الذي أفرزته ممارسة الملوك السابقين والمتسم بالاستقرار والحياة . تأسيسا على هذا، يتمفصل الخطاب السردي في نص النصيحة على ثنائية أساسية تخترق النص وتمنحه التماسك الدلالي :

حياة عكس موت

و من الواضح أن بيدبا الذي تنقل إلى القصر بمحض إرادته للدفاع عن الرعية، ورغبتها في الوجود والحياة، لم يفعل ذلك بناء على تكليف مباشر صادر منها، بل من موقع قناعته بضرورة التغيير الهادف إلى استرجاع الحقوق الجماعية للرعية. ولئن كان هذا العامل الجماعي(الرعية) يفتقد في النص، وتحديدا في المشروع المتضمن إسداء النصيحة للملك، إلى الدور الذي يمكن أن يضطلع به للدفاع عن حقوقه وتطلعاته ، فإنه في وضعية عاملية أخرى وفي عهد سابق انبرى لخلع الملك الذي خلفه عليهم الاسكندر:

أ **"...و لا ترضى <u>الخاصة</u> <u>والعامة</u> أن يملكوا عليهم رجلا ليس هو منهم ولا من أهل بيوتهم فإنه لا يزال يستذلهم ويستقلهم. واجتمعوا يملكون عليهم رجلا من أولاد ملوكهم ، فملكوا عليهم ملكا يقال له دبشليم، وخلعوا الرجل الذي كان خلفه عليهم الاسكندر"**[55].

تنصهر في هذا الملفوظ، الخاصة والعامة في فاعل جماعي واحد يتحدد دوره على مستوى الخطاطة السردية من خلال عملية التحري(تحقيق الإنجاز) التي يقوم بها ليرد الأمور إلى نصابها وبالتالي إعادة الاستقرار، والكرامة للإنسان. إن رغبة الفاعل في خلع دبشليم تلقى مصدرها في عزمه على عزله. ويأتي هذا الفعل المحول، على الصعيد العرفاني، في الامتداد الطبيعي للقرار السياسي الذي اتخذ جماعيا(اجتمعوا). وعليه، فإن تنفيذ هذا القرار، وتمليك دبشليم، و منحه الثقة جاء نتيجة لإجماع الخاصة و العامة (الفاعل الجماعي المنفذ). يسكت النص في هذه الوضعية العاملية عن ذكر الإطار التنظيمي لهذا الاجتماع، و يسكت أيضا عن ذكر الأطراف الفاعلة في صناعة القرار. وإذا عقدنا مقارنة بين / أ / و / ب/ ، فإننا نلاحظ أن القرار الذي اتخذه بيدبا في الوضعية العاملية /ب/ هو محصلة لعمل فردي اقتصر فيه على مشاورة الفئة الخاصة (تلامذته) وطلب معونتها لمواجهة الملك. إن اتصاله بالفئة الخاصة ومحاولة حملها على التنقل معه إلى فضاء القصر قد يكون صادرا عن درکه بأن الملك لا يرفض الاجتماع بها والإصغاء إليها لقناعته "**بأنه يعرف فضلهم على غيرهم**"[56].و يمكن أن نؤول غياب الفئة العامة من هذا برنامج الذي قرر بيدبا تنفيذه على أنه يتوافق مع طبيعة المشروع الذي لا يحتاج إلى قدرة مادية في المواجهة. وبالتالي، فإن كفاءة بيدبا تنهض في المقام الأول على المعرفة التي ينبغي أن تسخر لإقناع الملك بضرورة سلوك سبيل الأسلاف، وتتبع آثار الملوك قبله بإحداث وصلة بالمتصل السياسي:

"و كان الأولى و الأشبه بك أن تسلك سبيل أسلافك، وتتبع آثار الملوك قبلك، وتقفو محاسن ما أبقوه لك،

وتقلع عما عاره لازم لك، وشينه واقع بك ،تحسن النظر
برعيتك، وتسن لهم سنن الخير الذي يبقى بعدك ذكره"[57].

ينزع بيدبا في هذا الملفوظ بخطابه إلى توصيف وضع في زمن مضى تتسرب عبره مجموعة من القيم يتوافق فيها الحاكم و المحكوم، و هذه القيم التي تجسدها **المحاسن**، و**آثار** الملوك السابقين حاضرة لا تعدو أن تكون إرثا يورث كما تورث **الأرض، والديار، والأموال، والمنازل**(انظر ب أعلاه). بهذا المنطق الحجاجي، يمارس بيدبا فعله الإقناعي، وسلطته المعرفية على الملك لحمله على تغيير سياسته. وتتصدر هذا التحريك الجهة الوجوبية modalité déontique المتضمنة تبليغ الأمر بالتنفيذ:

" **وكان الأولى والأشبه بك أن تسلك سبيل أسلافك** ... "

الذي يضع الملك أمام اختيار صعب؛ الرفض واستبعاد إمكانية العدول عن سياسته أم قبول الانخراط في مشروع هو في الحقيقة امتداد لمشروع الملوك السابقين الذين وطدوا علاقاتهم بالرعية، واستجابوا بالحوار لتطلعاتها المشروعة. غير أن المنطق الذي يشيد عليه بيدبا خطابه الحجاجي يقودنا إلى اعتبار الرفض مسألة غير واردة لإدراك الملك أنه يستمد سلطته من الرعية التي أوصلته إلى الحكم (خولت من الملك) بهدف اقتفاء سياسة الملوك السابقين. ويعني رفض نصيحة بيدبا الصادرة عن إشفاقه عليه، بكل بساطة، سحب الرعية الثقة منه لخرقه العقد، و يلقى ، في هذه الحالة، نفس مصير الملك السابق:

"فلم أتكلم بهذا ابتغاء عرض تجازيني به،
ولا التماس معروف تكافئني فيه، ولكني
أتيت ناصحا مشفقا عليك"[58].

يحدد بيدبا، في هذا الملفوظ، بدقة موضوع القيم الذي يسعى إلى تحقيقه في عملية التحري التي تتموضع على إيزوتوبيا المعرفة. إن الفاعل المنفذ في هذا البرنامج لا يسخر خطابه الإصلاحي في سبيل تحقيق مجموعة من القيم المادية، وبالتالي فإن هذا البرنامج لا يمكن أن يشيد على بنية التبادل التي تقضي بتقديم بيدبا خدمة للملك للحصول على مكافأة. تحتكم هذه البنية إلى النظام الأكسيولوجي الذي يقتضيه العقد المقترح على بيدبا في بداية اللقاء :

"قال الملك يا بيدبا تكلم كيف شئت:فإني مصغ
إليك(...) وأجازيك على ذلك بما أنت أهل له"[59].

تعد المكافأة في هذا السياق شكلا من أشكال الإغراءات المادية التي لجأ إليها الملك لشل قدرته على القول في شؤون الملك. ويعني رفض بيدبا هذا العرض خروجه من نظام، والدخول في نظام

أكسيولوجي آخر يهدف، من جهة، إلى تقديم النصيحة للملك مقابل الحصول على تنازلات تكفل الحقوق الجماعية للرعية، ويهدف من جهة ثانية،على مستوى البنية العميقة للنص، إلى نفي الجهل وتثبيت المعرفة التي تنهض عليها الممارسة السياسية **["فإن الجاهل المغتر من استعمل في أمور البطر و الأمنية، والحازم اللبيب من ساس الملك بالمداراة والرفق"[60]]:**

الجهل المعرفة

↑ ↙

اللا جهل

ويتعزز هذا التأويل،على الصعيد العميق، بتقويم الملك السلبي لنصيحة بيدبا، و بالتالي رفض المعرفة، بوصفها جهة يحتكم إليها **الفعل السياسي**، كبديل للجهل :

المعرفة الجهل

↑ ↙

اللا معرفة

ونلقى تجليات هذا المسار الدلالي في رد فعل الملك الحاد والمتوافق، على المستوى الهووي، مع درجة التوتر العنيفة التي أحدثتها النصيحة:

"أوغر صدر الملك

↵

فأغلظ له في الجواب"[61]

تتحدد صورة /أوغر/[62] في حرارة الغيظ الذي يعتبر من الحالات القصوى للغضب. لم يتوقع الملك أبدا أن نصيحة بيدبا ستكون بمثابة صدمة عنيفة باغتته، وخيبت آماله، وحرمته من امتياز(مدح بيدبا للملك) يعزز نفوذه السياسي. وهذا يقودنا إلى القول إن الملك دفع الفيلسوف إلى الكلام لأنه كان مقتنعا في اللحظة الأولى التي جمعته به أن النصيحة لن تتجاوز حدود اللياقة والمجاملة و لن تخترق الممنوع (الحديث عن أمور الملك). إن هذه الإسقاطات على الآخر تنهض على عقد تخيل الملك أنه سيسيج نصيحة بيدبا في إطار الكلام المباح الذي تحكمه مجموعة من القيم الخاضعة للنظام الأكسيولوجي للقصر. وبقدر ما ارتقى الملك إلى درجة اليقين من الحصول على **الامتياز** بقدر ما كانت **الخيبة موجعة، والسقوط عنيفا، والعقوبة** التي يسلطها على بيدبا **قاسية**:

"فلما فرغ بيدبا من مقالته،وقضى مناصحته،

أوغر صدر الملك فأغلظ له في الجواب استصغارا

لأمره، وقال: لقد تكلمت بكلام ما كنت أظن أن أحدا من أهل مملكتي يستقبلني بمثله،ولا يقدم على ما أقدمت عليه،فكيف أنت مع صغر شأنك و ضعف منتك وعجز قوتك؟و لقد أكثرت إعجابي من إقدامك علي،وسلطك بلسانك فيما جاوزت فيه حدك .وما أجد شيئا في تأديب غيرك أبلغ من التنكيل بك"[63] .

وتندرج هذه العقوبة في إطار برنامج الانتقام الذي يشتغل في اتجاهين.

أولا: التنكيل ببيدبا الذي يهدف إلى تحقيق نتيجتين :

أ- تسليط العقوبة عليه بما يردعه

ب- ترويع غيره من إتيان مثل صنيعه

ثانيا: تطويق دائرة احتجاج ممكن الحدوث بطلب تلاميذه ومن كان يجتمع إليه:

"أنفذ في طلب تلاميذه ومن كان يجتمع إليه فهربوا في البلاد واعتصموا بجزائر البحار"[64].

إن تنفيذ هذا البرنامج المضاعف هو في الواقع مسخر للتعويض وسد نقص أحدثته الهزة الكلامية العنيفة في نظام المُلك الذي يحركه المَلِك في تعامله مع الرعية. وإذا كانت هذه الهزة موجعة للملك، فإنه لن يرتاح، ولن يعيد توازنه النفسي إلا بتسليط عقوبة قاسية. ولئن كانت هذه العقوبة، من منظور الملك، غير كافية وغير متوافقة مع الجرح العميق الذي خلفته النصيحة، فإن الملك ارتقى بها إلى إصدار الحكم بالإعدام على بيدبا :

" ثم أمر به أن يقتل ويصلب"[65].

و لكن دبشليم سرعان ما يتراجع عن الأمر بتنفيذ القرار، ليتخذ قرارا آخر يتضمن **تخفيفا** في العقوبة:

"فلما مضوا به فيما أمر، فكر فيما أمر به فأحجم عنه، ثم أمر بحبسه وتقييده"[66].

يمكن أن نؤول التراجع عن الإعدام على أنه يشكل لحظة حاسمة في مسار الملك الذي يتطور بشكل إيجابي ويرتقي من الارتجال في الحكم الصادر عن توتر انفعالي إلى التفكير الجدي(فكر فيما أمر به).

ويعد هذا الارتقاء، في الواقع، محصلة من القيود التي ألزم بها نفسه في اللحظة التي جمعته بالفيلسوف والتزم فيها باحترام حريته في التعبير. وتعد هذه الإكراهات، كما لاحظنا ذلك في بداية التحليل، نتيجة للتنازلات التي استدرجه إليها بيدبا. في هذه اللحظة السردية التي احتكم فيها الملك في سلوكه إلى عقله على حساب أهوائه ونزواته، بدأت تتطور الأمور بسرعة بفعل ظهور مرسل(الفلك) من طبيعة سماوية حرك الملك لينتصب فاعلا مفترضا في برنامج التحري عن حقيقة أسرار تفلك الفلك وحركات الكواكب :

"حتى إذا كان ليلة من الليالي سهد الملك سهدا شديدا،
فطال سهده، ومد إلى الفلك بصره، وتفكر في تفلك
الفلك وحركات الكواكب"[67].

ويتحدد ارتقاء الملك ، على المستوى الخطابي، من وضعية مضطربة إلى وضعية قارة، ومن حالة متوترة متسمة بالميل إلى الاعتداء إلى حالة هادئة مسومة بالتفكير في العالم السفلي وفي العالم العلوي، عبر مجموعة من الصور تتضامن وحداتها المضمونية لتحيل على برنامج تكون فيه السلطة للفكر:

❶ **"وتفكر في تفلك الفلك**
↵7 ❷ **فأغرق الفكر فيه**
❸ **فسلك فيه** إلى استنباط شيء **عرض له من أمور الفلك،**
↵7 ❹ **والمسألة عنه"**[68]